تاريخ ما بين السطور
سر اختفاء المايا

رمضان مصطفى سليمان

ولادة الحضارة وسط الغابات

بين عامي **292 / 909 ميلادية**، نهضت في قلب الغابات الاستوائية الكثيفة بأمريكا الوسطى حضارة عظيمة :**حضارة المايا**.

اسمٌ يثير الخيال، يرفرف كالفراشة على ألسنة الناس، حتى أن كثيراً من سكان المكسيك وغواتيمالا وهندوراس اليوم يطلقون على بناتهم اسم "مايا". لماذا البنات لا الصبيان؟ أهو تفضيل جمالي؟ أم هو استعادة رمزية لروح مؤنثة، حضارة كانت أشبه بعروس غامضة تزينت ثم اختفت فجأة؟

لكن السؤال الأعظم لا يزال يلوح كسيف في وجه الباحثين:

كيف يمكن لشعب كامل أن يختفي فجأة، دون أن تذروه الرياح كما فعل الإسبان بالأزتيك والإنكا؟

X

في مجلسٍ أكاديمي، جلس **الأستاذ جارسيا**، مؤرخ من أصول مایاوية، يواجه أسئلة زملائه:

- **زميلة :**

"ولكنك يا أستاذ، كتبت في مقدمة كتابك *أين ذهب شعب المايا؟* ، فهل وضعت يدك على السر؟"

- **جارسيا** :

" **:**بصراحة كلا. ربما وضعت يدي على بعض الخيوط"

ثم استطرد يقول :

" لكن الحقيقة الكاملة لا تزال مطمورة في التراب، تنتظر من ينفض عنها التراب ".

الجواب لم يكن هروباً، بل إقراراً بأن الغموض أعمق من كل تفسير.

يدخل على الحوار **بيير أونوريه،** عالم الحفريات الفرنسي، مؤكداً أن التاريخ الدقيق لاختفاء المايا هو **909م** .ليس تحديداً اعتباطياً، بل ما أثبتته الأرض ذاتها: الغابات التي التهمت القرى فجأة، والحقول التي توقفت عن الإنتاج كأن الحياة انطفأت في لحظة من الزمن .

تقاطعه الزميلة بدهشة:

- **"ألا ترى أن حصر هذا السر في عام واحد مبالغة؟ الشعوب لا تختفي بلمح البصر".**
- **أونوريه** :

" لكن الآثار أصدق من الكلمات، كل النشاط البشري توقف فجأة عن الحياة ، وهذا ما يجعل الأمر محيّراً ".

وهنا يدخل البعد الرمزي: كأن حضارة المايا تمثل **شعلة انطفأت فجأة،** وكأنها أرادت أن تترك التاريخ مشدوهاً أمام لغزها الأبدي لغز لا يصدقه عقل .

X

الدكتورة سيرام، المتخصصة في حضارات أمريكا القديمة، رفضت فرضية "الاختفاء التام."

- **سيرام** :

" الشعوب لا تذوب في العدم. لم نجد جثثاً ولا مقابر. حتى الحيوانات المستأنسة اختفت. هذا ليس فناءً بل هجرة ".

الهجرة في منظورها ليست مجرد انتقال جغرافي، بل **رحيل جماعي من حضارة إلى أخرى** .المايا – في نظرها – قد غادروا أرضهم حين جفّت الأمطار، حين تحولت الخصوبة إلى صحراء جرداء . هنا يظهر المعنى الرمزي: المايا لم يختفوا، بل **انسحبوا من المسرح حين لم تعد الأرض تستجيب لنداءاتهم الدينية والطقسية ، بل و الحياتية** .

لكن الاعتراض ينهض من جديد:

- "الأرض اليوم خصبة، والمطر كافٍ، فكيف نفسر الجفاف المزعوم ؟"
- **سيرام** :

" التغيّرات المناخية تتكرر عبر التاريخ. ما نراه اليوم من تصحّر يهدد مناطق خضراء هو نسخة عصرية مما عاشه المايا ".

إنها تقرأ الأسطورة بعين الطبيعة، وتربطها بدورة الأرض الكبرى .

X

يبرز هنا أكثر جوانب الأسطورة درامية :**بحيرة القرابين المقدسة**.

النقوش القديمة في معبد "تشن تشن إتزا" تتحدث بوضوح:

" على كل رب أسرة أن يقدم من إناث بيته من بلغن السادسة عشرة، ليختار منهن الإله صديقته في بحيرة القرابين ".

كانت الفتيات يلقين في البحيرة كقرابين حية، في مشهد يشبه أسطورة "عروس النيل" في مصر القديمة. لكن الفرق أن **عروس النيل أسطورة** لم تثبت نصوصياً بل أسطورة شغهية، بينما قرابين المايا ثبتت بالدليل الأثري القاطع .

في هذا الطقس المروع، يظهر البعد الرمزي: الفتاة الملقاة ليست مجرد ضحية، بل **جسر بين الأرض والسماء**، بين الخصوبة والموت. المايا لم يعبدوا الموت، بل رأوا فيه **لغة الطبيعة حين تجف**، كأن الدم البشري هو المطر الأخير الممكن .

X

يدخل **الكابتن تومسون**، المغامر الذي جاب أرض المايا عام 1935، ضاحكاً ومرحاً، لكنه يحمل شهادة فريدة:

- **تومسون** :

" بحثتم على السطح، لكنكم لم تحفروا عميقاً بما يكفي. لو فعلتم لوجدتم آلاف الجثث، لرجال ونساء وحيوانات، طمرها زلزال مروّع عام 909 م".

هو لا يفسر بقاء المعابد قائمة رغم الزلزال، لكنه يرى أن الكارثة الكبرى شملت الأمريكيتين، قلبت الأنهار، وابتلعت جزر بأكملها ابتلاعا . بالنسبة له، **اختفاء المايا ليس هجرة ولا إبادة، بل كارثة طبيعية مفاجئة**.

لكن رمزية الزلزال تتجاوز الحدث الطبيعي: الزلزال هو **اهتزاز الوجود ذاته**، سقوط الثقة بالسماء والأرض معاً . المايا، في هذا المنظور، لم يتركوا حضارتهم، بل ابتلعتهم الأرض التي كانوا يقدسونها.

X

ما حدث للمايا يقارن بأساطير شعوب أخرى:

- **أسطورة أتلانتس**، القارة الغارقة فجأة في البحر، تشبه اختفاء المايا في البر. كلاهما يحكي عن حضارة بلغت ذروتها ثم ابتلعها الغياب الكوني .
- **أساطير الأزتيك والإنكا**، حيث الفناء كان بالسيف الإسباني والذهب ، في حين أن المايا اختفوا بلا دماء مرئية.
- **الأساطير المصرية**، حيث "إيزيس وأوزوريس" يمثلان موتاً وقيامة، بينما المايا يمثلون موتاً بلا قيامة، غياباً بلا عودة.

الرمز المشترك هنا أن **الحضارات لا تموت فقط بالقتل، بل أيضاً حين تفقد التوازن بين الطبيعة والإنسان، بين السلطة والشعب، بين الأرض والسماء**.

X

الحوارات بين الشخصيات تكشف أبعاداً رمزية:

- **جارسيا** يمثل صوت الانتماء والبحث عن الجذور، هو الحفيد الذي يحمل عبء سؤال الأجداد.

- **أونوريه** يمثل صوت "العلم الدقيق"، الذي يثق في الشواهد الأثرية أكثر من الأساطير.
- **سيرام** تمثل صوت "الهجرة"، أي أن الحضارة تتحول لكنها لا تفنى، رمز الانتقال من طور إلى طور.
- **تومسون** يمثل صوت "المغامرة"، أي أن الحقيقة ليست في النصوص بل في المخاطرة والبحث في الأعماق.

هذه الأصوات الأربعة تشكل **أسطورة جديدة داخل الأسطورة نفسها** :أسطورة الباحثين أنفسهم، وكيف أن كل واحد منهم يحمل مفتاحاً مختلفاً للغز، كأن الحقيقة لا تُرى كاملة إلا إذا اجتمعت الأصوات كلها.

X

في النهاية، يبقى السؤال مفتوحاً:

هل المايا **أبيدوا بالزلزال؟** أم **هاجروا بسبب الجفاف؟** أم **اختفوا في طقس رمزي من التضحية؟**

الحقيقة التاريخية قد لا تُعرف أبداً. لكن **الحقيقة الرمزية** أوضح:

- اختفاء المايا هو **درس فلسفي** عن هشاشة الحضارة ككل الحضارات التي اندثرت .
- هو **أسطورة إنسانية** تذكّرنا أن القوة والمعابد والطقوس لا تضمن البقاء .
- هو **حوار مع الحاضر** :إذا لم نحفظ توازننا مع الطبيعة والعدالة الاجتماعية، فقد نصبح مايا جديدة تختفي فجأة.

X •

المايا لم يختفوا تماماً. بقاياهم تسكن ملامح أحفادهم، أهازيج شعوب غواتيمالا، حروف النقوش التي صمدت في الحجر ، و لم تندثر ، بقيت لتدل على أن هنا في هذا المكان من الأرض كانت توجد حضارة .

اختفاء المايا أسطورة، لكنه أيضاً **مرآة** نرى فيها وجوهنا. فربما نحن – في عالمنا المزدحم بالكوارث والمظالم – نقف على العتبة ذاتها، حيث قد يسجل التاريخ بعد قرون:

"كان هنا شعب... ثم اختفى".

أين ذهب شعب المايا؟

يشكل اختفاء حضارة المايا إحدى أكثر النقاط غموضاً في تاريخ الأمريكيتين القديمة. تمتد رقعة حضارتهم إلى نحو 330 ألف كيلومتر مربع في منطقة شبه جزيرة يوكاتان وشواطئ خليج المكسيك حتى ما يُعرف اليوم بجنوب المكسيك وشمال أمريكا الوسطى. في هذه الورقة المُنسَّقة نحاول تقديم قراءة تاريخية أكاديمية للنصّ المروي، مع توضيح الموقف العلمي من «النقطة المظلمة» التي أشار إليها بعض علماء الحفريات، ثم نعرض استعراضاً لمواد الشهادة والمرويات، وأخيراً نستخلص بياناً عن «النصر» النفسي والاجتماعي والفلسفي لحضارة المايا.

X

استند النصّ الأصلي إلى مقابلات وشهادات مباشرة مع مختصّين من بينهم الدكتورة سيران — أستاذة الحضارات الأمريكية القديمة في جامعة سياتل — والكابتن إدوارد هربرت تومسون، والمذكور في المروية كمغامر ومستكشف عاصر اكتشافات ميدانية في أوائل القرن العشرين. كما اعتمد النصّ على وثائق إسبانية قديمة نُقلت على لسان قسٍ أُشير إليه باسم «الأب دي لاند» المرتبط بحملة الطاغية كورتز (1519 م) ووقائعَ ميدانية تروي احتكاكات الغزاة مع السكان المحليين.

X

تقرّ الدكتورة سيران بعدم وجود تفسير قاطع لاختفاء بعض مدن ومراكز الحضارة المايية بحلول عام 909 م كما ورد في المرويّة. يُستخدم في علم الحفريات ومختصّات علم التاريخ المصطلح «النقطة المظلمة» للدلالة على فترات أو أحداث تاريخية لا تتوافر لها دلائل مباشرة كافية لتفسير التحوّلات. وتبقى أسباب التراجع أو الفراغ السكاني في أماكن معيّنة من حضارة المايا موضوع بحث ونقاش، يتداخل فيه المناخ والبيئة والحروب الداخلية والاضطرابات الاقتصادية والدين والصحة العامة.

X

تقدّم رواية الكابتن تومسون وصفاً ميدانيّاً لمرحلةٍ من الاكتشافات والالتقاء بالآثار،

وتكشف أوراق الأب دي لاند عن تفاصيل من زمن غزو كورتز، حيث تُستحضَر مواجهات عنيفة أدّت إلى هزّاتٍ اجتماعية ومآسي محلية. تروى إحدى الحوادث التي وردت في الأوراق كيف أن اقتحام قرية ووفاة كاهنٍ عجوز تلاها «انشقاقات أرضية وهطول أمطار عنيفة»، وحكاية دخول الإسبان إلى هياكلٍ هرميّةٍ ومقابرٍ وخبراتِ دهشةٍ أمام نقوشٍ وقطعٍ أثرية.

نصّ الأب دي لاند يتخذ طابعاً وصفيّاً ذا بُعد أخلاقيّ وسياسيّ، فهو ينقل اعتقادات الأغيار عن «أجداث الأجداد» ويحاول تفسير مقاومة السكان الأصليين، بينما يكشف أيضاً عن نوايا الغزاة المادية (الذهب، النهب) والصراع بين الدين الرسمي للغازي والديانات المحلية الوثنية .

X

- **التدهور البيئي والمناخي :**تشير فرضيات إلى ضغوطٍ بيئية مثل الجفاف، وإزالة الغابات، وتآكل التربة، ما أدى إلى فشل المحاصيل وانهيار شبكات التغذية.
- **الحروب والنزاعات السياسية :**صراعات بين المدن-دول المايية نفسها، أو غزواتٍ وإعادة ترتيبٍ سياسي أدت إلى هجر المدن.
- **الأوبئة والأمراض :**انتقال أمراض جديدة، خصوصاً بعد اتصالات لاحقة مع الأوروبيين، قد يكون سرّع الانهيار في مراحل لاحقة.
- **التحوّلات الاقتصادية والثقافية :**تغيّر في شبكات التجارة أو فقدان النظم الإدراية والطقوسية التي كانت تدعم استقرار المدن.

ويبقى الجمع بين هذه العوامل هو الأكثر قبولاً؛ فالنموذج الأحادي لا يفسّر دقة الظاهرة على نحو كامل.

X

تُقدّم الأرشيفات الإسبانية، ومنها أوراق الأب دي لاند، موادّ ذات قيمة تاريخية تُضيء لحظات من التماس بين الثقافات؛ لكنها تحمل أيضاً تحيّزاتٍ أيديولوجية ودينية وسياسية. على الباحث أن يوازن بين القيمة المعلوماتية لتلك الشهادات وإمكاناتِ تحريفها أو سوء فهمها للممارسات والرموز المحلية.

X

لا يوجد حتى الآن تفسير نهائي لاختفاء أجزاءٍ من حضارة المايا بحلول عام 909 م؛ بل إن ثراء الآثار والنقوش والمعارف العلمية التي تركتها هذه الحضارة تشهد على استمرار حضورها الرمزي والثقافي. إن الدرس الذي يستخلصه المؤرخُ وعاشقُ الذات البشرية هو أن الانهيارات الحضارية غالباً ما تكون نتيجة تراكب عوامل داخلية وخارجية، وأن فهمها يتطلّب نهجاً متعدد التخصّصات.

بيان: النصر النفسي والاجتماعي والفلسفي لحضارة المايا

1.النصر النفسي

رغم تراجع المدن وتغيّر البُنى، فإن إرث المايا يحقق نصرًا نفسيًا لبقياهم ولأبناء المنطقة: فالذاكرة الجماعية التي حملت الأساطير والطقوس والرموز قد مكّنت الأجيال من الحفاظ على هويتها وتجاوز مأساة الفقدان. هذا النصر النفسي يظهر في قدرة المجتمعات على استعادة تاريخها وتوظيفه في بناء معنى وجوديّ يتجاوز الانكسار.

2.النصر الاجتماعي

يرتبط النصر الاجتماعي بمرونة بنية المجتمع المايّي في التكيف مع التحولات: القبائل والمجتمعات الريفية التي واصلت ممارسة عاداتها ولغاتها تشهد على استمرارية نسيج اجتماعي رغم

فقدان المراكز الحضرية. كذلك، فإن إعادة اكتشاف التراث والترميم الأثري أعاد للمنطقة فرصاً للاعتزاز الجماعي والاقتصاد الثقافي.

3.النصر الفلسفي

يُشكّل تراث المايا في الرياضيات والفلك والرموز منارة فلسفية تدلّ على عمق تفكير إنساني مستقلٍ عن النموذج الإنساني الأوربي الحديث. النظام الرمزي والطقوسي والاعتقادي لدى المايا يعكس تصوّراً للعالم يتعامل مع الزمان والدورة والكون، وهو نصيب حضاري من الحكمة الذي يبقى مادة للنقاش الفلسفي والإبداعي.

X

توصيات بحثية

- تكثيف الدراسات متعددة التخصّصات (أثريّات، علم المناخ القديم، علم الأمراض التاريخي، الأنثروبولوجيا الثقافية) لفهم الأسباب المركبة للاختفاء.
- رقمنة وتحليل نصوص ومخطوطاتٍ قديمة مشابهة لأوراق الأب دي لاند مع مراعاة النقد التاريخي والمقارن.
- إشراك المجتمعات المحلية في مشاريع حفظ التراث وتفسيره لضمان تمثيل أوسع وصحيح للذاكرة التاريخية.

X

يبقى سؤال عام 909 م مفتوحاً في أدبيات البحث، لكنّ الإجماع العلمي يميل إلى أن ما نراه من بدايات الانكماش والتحوّل كان نتيجة مزيج من عوامل بيئية وسياسية واجتماعية، وأن إرث المايا — بالمقومات النفسية والاجتماعية والفلسفية — لم يختفِ بل تبدّل صيغته وانتقل عبر الأزمنة كتراث حيّ.

فضاء تشي تشن إيتزا

وأوراق القس دييغو دي لاندا

يتناول هذا النصُّ وقائعَ مذكورةً في مذكراتٍ وسِيَرٍ رحّالةٍ تُنسبُ إلى الكابتن تومسون، الملحق الثقافيّ للسفارة الأمريكيّة في المكسيك خلال أوائل ثلاثينيّات القرن العشرين، ونصوصٍ محفوظة تُنسبُ إلى القسّ الإسبانيّ دييغو دي لاندا. يَرمي العرضُ إلى إعادة صياغة الوقائعِ والسردِ المرويّ في لغةٍ أكاديميّةٍ رصينةٍ، مع إبراز المراحل التاريخيّة المختلفة المرتبطةِ بمسرح الأحداث: ازدهارُ الحضارةِ المايَويّة، انهيارُها في القرن العاشر الميلاديّ، الحقبةُ الاستعماريّة الإسبانيّة، ثم عصر الاستكشاف والبحوث الأثريّة في القرنين التاسع عشر والعشرين. يُحافِظُ النصُّ على روح الرواية الأصليّة مع ضبطِ المسميات وتصحيحِ الالتباسات اللغويّة والتسلسُل الزمنيّ.

X

1.المشهد الأثريّ وسياق الرواية

تظهر السجلاتُ التي نقلها كابتن تومسون عبارةً عن مزيجٍ من ذكرِ مواقعٍ أثريةٍ معروفةٍ—كالهرم الكبير ومحيطِ تشيتشن إيتزا—وسردٍ شِعريّ لطقوسٍ دينيّةٍ محليّةٍ مروّعةٍ، تُصوّرُ تقديمَ قرابينٍ بشريّةٍ في بحيرةٍ مقدّسةٍ لا يُشارُ إليها عادةً في سجلاتِ الإداراتِ الأثرية المكسيكيّةِ في بدايات القرن العشرين. تعود أهميةُ مصادرَ كهذهَ إلى ما تُضيفهُ من تفاصيلٍ شعائريّةٍ وممارساتٍ طقسيّةٍ قد تفسّرُ جانبًا من حياةِ الجماعاتِ المحليّةِ قبل اختفائها أو اندثار مؤسساتها السياسيّة.

في قلبِ هذا السردِ تقفُ أوراقُ القسّ دييغو دي لاندا وذاكَ الذي رآهُ أو رواهُ عن طقوسِ المايا؛ إذ تردُّ فيها إشاراتٌ إلى تقديمِ «دماء الضحايا» في بحيرةٍ يقالُ إنّها «تشن تشن إيتزا المقدّسة»— مصطلحٌ شعبويٌّ قد يدلُّ على بحيرةٍ طقسيّةٍ داخلَ فضاءٍ معبدِيٍّ. من المهمّ، من منظورٍ تاريخيٍّ-أكاديميٍّ، التمييزُ بين الروايةِ الأدبيّةِ أو الرحّاليةِ وبين البياناتِ الأثريّةِ الموثّقةِ.

X

.2المراحل التاريخية المرتبطة بالمكان والممارسات

أ. الفترة الكلاسيكيّة (من نحو 250 ق.م إلى نحو 900م)

تُعدّ الفترةُ الكلاسيكيةُ ذروةَ ازدهارِ الثقافة المایاوية من حيث العمارة، والنقوش، والطقوس المؤسَّسة. هنا تَنبُتُ المراكزُ الحضرية الكبرى، وتُبنى الأهْراماتُ والميادينُ، وتتكامل الشؤونُ الدينيةُ مع السلطةِ السياسيةِ في دولةٍ مدينيةٍ قائمةٍ على قِيَمٍ طقسيّةٍ معقّدة. ويقعُ في هذه المرحلةِ معظمُ الإبداعِ الفنيّ والنقوشِ التي تحفظ لنا عناصرِ العقائدِ والولاءَاتِ المحليةَ.

ب. الانهيار الكلاسيكيّ المبكّر (نحو القرن التاسع - القرن العاشر الميلادي)

تشهدُ الكثيرُ من مراكزِ الحضارةِ المایاوية في نهايةِ القرن التاسع وبدايات القرن العاشر ظاهرةً تُعرَفُ بـ«الانهيار الكلاسيكيّ»؛ إذ تراجعتْ بعضُ المدنِ الكبرى أو تُركتْ فجأةً لأسبابٍ مركّبةٍ: تغيّراتٌ بيئيّةٌ، أزمةٌ زراعيّةٌ، اضطراباتٌ سياسيةٌ داخلِ منظوماتِ السلطة، أو ضغطٌ ديموغرافيّ. إنّ إشارةَ بعضِ المصادرِ إلى «اختفاءٍ» عام 909 قد تُجسّدُ إدراكًا لإحدى نقاطِ هذا الانهيار؛ لكنّ الإجماعَ العلميّ يرى أنَّ العمليةَ كانت تفاوتًا زمنيًّا ومكانيًّا لا عمليةً واحدةً موحّدة.

ج. الحقبةُ ما بعد الكلاسيكيّة والاتصالُ الأوروبيّ (من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر)

في هذه المرحلةِ تستمرُّ بقاياُ التجمعاتِ المايَوية على نحوٍ متشتّتٍ، تتغيرُ أنماطُ السلطةِ وتتحوّلُ الممارساتُ الدينيّة. مع وصولِ الإسبانِ إلى سهولِ المكسيك واليوكاتان خلال أوائل القرن السادس عشر، رُصدَتْ تقاريرٌ عن احتفالاتٍ وطقوسٍ محليّةٍ مِن قِبَل المستعمرين والمبشّرين (من بينهم القساوسةُ مثل دييغو دي لاندا) الذين دوّنوا ملاحظاتٍ متباينةً دفعتْ إلى تسجيلِ جوانبَ من العقائدِ والممارساتِ التي اختلفتْ في فهمها وموقفها.

القسّ دييغو دي لاندا، وهو شخصيةٌ تاريخيةٌ معروفةٌ بوثائقهِ عن المايا، قدّمَ ملاحظاتٍ حملتْ في طيّاتها تنديدًا وغموضًا؛ فبينما قدّمتْ نصوصُه معلوماتٍ قيّمةً، حملتْ أيضاً أحكامًا وقضماتٍ أيديولوجيّةً فرضتها الخلافةُ الاستعماريّة والمهمّة التبشيريّة.

د. العصرُ الحديث: الاستكشافُ والتنقيبُ والبحثُ الأثريّ (القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين)

انطلقَ اهتمامٌ أوسعُ بالمواقعِ المايَوية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فتزايدتْ رحلاتُ الاستكشافِ والكتابةِ والنشرِ، مع بروز رحّالةٍ ومغامرينَ ومستشرقينَ سجّلوا اكتشافاتٍ متواترةٍ حولَ هياكلَ ونقوشٍ ومقاطعَ طقسيّةٍ. راوحت الدوافعُ بين المنشور العلمي والبحثِ الأثريّ من جهةٍ، والرغبةِ في المغامرةِ والبحثِ عن الكنوزِ من جهةٍ ثانية. تُمثّلُ تجربةُ الكابتن تومسون حالةً فرديّةً من هذا المزيج: رجلٌ دبلوماسيٌّ استقالَ من منصبهِ ليخوضَ مغامرةً ميدانيّةً، باحثًا عن دلائلَ على صحةِ مراسيمَ قديمةٍ وردتْ في أوراقٍ مُعتمَدةٍ.

هـ. التثمينُ الحديث والتراثُ السياحيّ

مع تأسيس هيئاتٍ دوليّةٍ ومحليّةٍ كاليونسكو وإداراتِ الآثار، دخلت مواقعُ مثل تشيتشن إيتزا وبونامباك في دائرةِ البحثِ والتدخّلِ

للحفظِ والترميمِ، كما تحوّلتْ إلى معالمَ سياحيّةٍ مهمّةٍ. إنّ السعيَ إلى تفسيرِ عناصرِ الطقوسِ أو إثباتِ صحةِ ما ورد في أوراقِ رحّالةٍ يتقاطعُ اليوم مع مناهجِ علميّةٍ دقيقةٍ تتطلبُ حفرًا منهجيًّا، دراساتِ طبقيّةٍ، وتحليلَ نصوصٍ أصليةٍ بعينِ المنهجيّةِ النقديّةِ.

X

3.قراءةٌ نقديّةٌ ومآلاتُ النصّ

ينبغيُ عند التعاملِ مع نصوصٍ من هذا النوعِ مراعاةُ التمييزِ بين ثلاثةِ مستويات:

(1) الروايةُ الرحّاليةُ أو الشهاديةُ التي قد تحملُ طابعًا أدبيًّا أو تشويقيًا،

(2) السجلاتُ الكنسيّةُ أو الإداريّةُ ذات الصفةِ الرسميّةِ،

(3) الدليلُ الأثريّ الميدانيُّ القابلُ للاختبارِ؛ فالتوفيقُ بين هذه المستويات هو ما يمنحُ التأويلَ تاريخيّةً ومصداقيّةً علميّةً.

تقدِّمُ أوراقُ القسّ دييغو دي لاندا مادةً ثمينةً لدراسةِ ممارساتٍ ومرجعياتٍ قديمةٍ، لكنها تحتاجُ قراءاتٍ منقّحةً وطروحاتٍ تقاطعيّةً مع الآثارِ واللسانيّاتِ والأنثروبولوجيا. أما مذكراتُ الكابتن تومسون فتمثّلُ مثالًا على تلاقي المغامرةِ الشخصيةِ مع البحثِ العلميّ الغائبِ في بعض الأحيان، ما يحثُّ الباحثينَ على مواكبةِ الروايةِ بالملاحَظاتِ الميدانيّةِ الدقيقةِ والتحليلاتِ النقديّةِ.

X

يمنحُ الجمعُ بين الوثائقِ التاريخيةِ (كأوراقِ دي لاندا) وسجلاتِ المستكشفينَ (كحكاياتِ الكابتن تومسون) إمكانيةَ إعادةِ بناءِ صورةٍ أكثرَ ثراءً عن العالمِ المایاويّ وتحوّلاتِه التاريخيّة، شريطةَ التزامِ الباحثينَ بمنهجٍ نقديٍّ يفرّقُ بين الدليلِ الميدانيّ والكتابةِ الرحّاليةِ. كما

يظلُّ فهمُ أسبابِ «الاختفاء» أو التراجعِ في القرنِ العاشر مجالًا مفتوحًا للبحثِ المتعدّدِ الاختصاصات، لا للتقليلِ من قيمةِ المصادرِ الفرديةِ بقدرِ ما هو توجيهٌ لاستكمالِها بمنهجياتٍ أثريّةٍ وتحليليّةٍ راسخةٍ.

نُقِحَ وأُعيدُ صياغتهُ ليكونَ نصًّا أكاديميًّا تاريخيًّا منظّمًا، مع إبرازِ المراحلِ التاريخيةِ وبيانِ حدودِ الوثوقِ بالمصادرِ الواردةِ في السرد.

الكابتن هربرت تومسون

مغامر بين التاريخ والنفس والأسطورة

يمثل الكابتن **هربرت تومسون** شخصية مغامرة استثنائية، جمعت بين روح الاكتشاف والإيمان بقدرة الإنسان على اقتحام المجهول.

لقد ارتبط اسمه بمحاولات الكشف عن أسرار شعب المايا في أمريكا الوسطى، ذلك الشعب الذي ازدهرت حضارته ثم اختفى فجأة تاركًا وراءه ما يُعرف في الدراسات الأنثروبولوجية بـ "النقطة المظلمة" في التاريخ الإنساني. يروي تومسون مغامرته بروح مرحة ولكنها مشوبة بالقلق، بين البحث عن الحقيقة، ومواجهة المخاطر، والتأمل الفلسفي في مصائر الحضارات وزوالها.

X

المرحلة الأولى: من الدبلوماسية إلى المغامرة (1934)

استقال تومسون من عمله في السفارة الأمريكية بالمكسيك عام 1934، لينصرف إلى حلم راوده طويلًا: استكشاف معابد المايا في شبه جزيرة يوكاتان. هذه النقلة من الدبلوماسية إلى المغامرة تكشف عن **تحول نفسي عميق**، إذ لم يعد يرضيه العمل الروتيني في جهاز إداري، بل اندفع إلى المجهول، مستجيبًا لنداء داخلي يتجاوز المنفعة المادية إلى شغف روحي بالمعرفة والاكتشاف.

برفقة صديقه **هنري كافانو**، توجه تومسون إلى معبد **تشتشن إتزا** Chichén Itzá))، وبدأ رحلة البحث عن القاعات السرية التي تحدث عنها القس دي لاند منذ خمسة قرون. منذ اللحظة الأولى، كان تومسون يتأرجح بين **العقلانية العلمية** التي تبحث عن أدلة ملموسة، وبين **التجربة الوجودية** التي تحاكي خوف القس الإسباني القديم عند اكتشافه للممرات السرية.

X

المرحلة الثانية: اكتشاف الأبواب السرية

كان المشهد دراميًا حين تسلقا السلالم الحجرية للمعبد. باندفاع يشبه الطقس النفسي الطقوسي، حاولا أن يستحضرا فزع القس الإسباني ليقوداهما إلى الباب المخفي. وبالفعل، نجحا في العثور على مدخل سري يقود إلى قاعة عظيمة منحوتة في الصخر، لكن دون الألواح الحجرية التي أشار إليها دي لاند.

من هنا، تبرز **الإشكالية النفسية** للمغامر الغربي:

إن اكتشاف الأثر لا ينفصل عن التوتر بين الحقيقة والخيال، بين ما يُقال في المخطوطات القديمة وما يظهر في الواقع. يظل البحث محفوفًا بالريبة، ويظل المغامر في حالة شك دائم، وكأن الباب السري ليس مجرد مدخل مادي بل **رمز لرحلة داخلية** نحو الأعماق الغامضة للتاريخ والذات.

X

المرحلة الثالثة: الغابة المقدسة وبحيرة القرابين

قادهم الباب الثاني إلى درج طويل انتهى بالغابة الكثيفة التي تحيط بـ "بحيرة القرابين المقدسة". تلك البحيرة التي ارتبطت في النصوص القديمة بالطقوس الدموية لشعب المايا، حيث تُلقى الجثث البشرية والأوعية الذهبية المملوءة بدماء الضحايا.

هنا يتجلى البعد **الفلسفي ـ الاجتماعي** :فالمغامر الغربي يرى في هذه الطقوس رمزًا للتوحش والهمجية، بينما يمكن قراءتها في سياقها الأصلي باعتبارها تعبيرًا عن منظومة دينية متكاملة تربط الإنسان بالآلهة عبر الدم والتضحية. بهذا، يكشف اللقاء بين تومسون والبحيرة عن **صدام حضاري** بين العقلية الغربية الحديثة التي تسعى للتوثيق والتحليل، وبين الممارسات الشعائرية لشعب غابر عاش وفق رمزية الدم والمقدس.

X

المرحلة الرابعة: الاستعداد للغوص (1935)

أدرك تومسون وصديقه أن سر الحضارة المایاوية لا يُكتشف إلا في أعماق البحيرة. وبعد قياس عمقها الذي بلغ 120 مترًا، قررا العودة إلى بوسطن لتعلم الغوص وجلب المعدات اللازمة. كان هذا القرار بمثابة انتقال من **المغامرة العاطفية** إلى **المنهجية العلمية**، حيث يندمج الشغف الشخصي بالمعرفة مع التطور التقني.

غير أن البعد النفسي ظل حاضرًا:

الغوص في بحيرة غامضة مليئة بالجثث والذهب لم يكن مجرد تحدٍ جسدي، بل كان أيضًا **اختبارًا للجرأة الإنسانية** أمام المجهول. هنا يظهر تومسون في صورة **الباحث ـ الفيلسوف**، الذي لا يكتفي برؤية السطح بل يريد أن يغوص إلى "القاع" رمزًا وحقيقة.

X

المرحلة الخامسة: الغوص في المجهول

بعد عودتهم إلى تشيت شن إتزا عام 1935، تسللوا سرًا بالمعدات إلى المعبد والغابة، متجنبان و متحددان رقابة السلطات المكسيكية. وهناك بدأوا الاستعداد لإنزال القوارب والغوص. وصف

تومسون البحيرة بأنها **متقلبة الألوان** :حمراء كالدم صباحًا، خضراء زاهية في الظهيرة سوداء قاتمة في الليل ، ما يعكس ـ في بعد نفسي رمزي عميق ـ ازدواجية الحياة والموت، الدم والماء، المقدس والدنيوي.

كما عثروا على نباتات عطرية مخدرة، كانت تُستخدم في الطقوس لتخدير الضحايا قبل إلقائهم في الماء. وهنا يظهر البعد **الأنثروبولوجي ـ النفسي**

:فالمايا لم يكونوا مجرد قتلة طقوسيين، بل كانوا يمارسون نظامًا معقدًا يمزج بين **العنف المقدس** و**التخدير الرحمي** للضحايا، كنوع من المصالحة بين الألم والقداسة.

X

بين الأسطورة والوعي التاريخي

تشكل مغامرة الكابتن هربرت تومسون لحظة مفصلية في تاريخ الاكتشافات الأثرية المرتبطة بحضارة المايا. فهي ليست مجرد مغامرة شخصية، بل هي نموذج لصراع الإنسان الحديث مع ماضي الحضارات البائدة:

- **تاريخيًا** :ساهمت مغامرته في فتح الطريق أمام البعثات العلمية، ومنها بعثات اليونسكو لاحقًا.
- **نفسيًا** :عكست رحلة البحث حالة المغامر الذي يواجه ذاته بقدر ما يواجه أطلال الماضي.
- **فلسفيًا** :طرحت أسئلة حول معنى التضحية، وقدرة الإنسان على تحويل الدم والموت إلى رموز دينية.
- **اجتماعيًا** :كشفت عن التوتر بين الغرب الاستعماري الحامل لأدوات العلم، والمجتمعات الأصلية التي جسدت حضارة كاملة برموزها وأساطيرها.

لقد أدرك تومسون أن المغامرة لا تنتهي عند لحظة الاكتشاف، بل تبدأ من هناك رحلة جديدة، هي رحلة التأمل في مصائر البشر والحضارات، وما يتركه الإنسان من أثر في الأرض والتاريخ.

مأساة بحيرة القرابين المقدسة:
مغامرة هربرت تومسون
واكتشاف الطقوس الدموية لشعب المايا

تشكل حضارة المايا إحدى أكثر الحضارات القديمة إثارة للجدل في تاريخ أمريكا الوسطى. فإلى جانب منجزاتها في الزراعة والفلك والعمارة والفنون، ارتبطت هذه الحضارة بطقوس دينية قاسية قوامها تقديم القرابين البشرية للآلهة، وهو ما تجلّى بوضوح في "بحيرة القرابين المقدسة" القابعة وسط غابة **تشن تشن إتزا** . وتكتسب حادثة غوص الكابتن الأمريكي **هربرت تومسون** عام 1935 بعداً مأساوياً وتاريخياً يكشف حجم العنف الذي مارسته تلك الطقوس باسم المقدّس.

X

مغامرة الغوص إلى الأعماق

قاد تومسون مع رفاقه مغامرة محفوفة بالمخاطر، مستخدماً معدات غوص بدائية تعود لثلاثينيات القرن العشرين. وقد وصف بنفسه الصعوبة التي واجهها:

" خوذة حديدية ثقيلة ، هواء متقطع يصل عبر خرطوم طويل موصول بأسطوانة هواء، وحركة مقيدة بحبل صلب يشده رفاقه من القارب. وما إن لامست قدماه طين القاع حتى وجد نفسه في فخّ موحل كاد يقضي عليه و يبتلعه .

لكن ما عثر عليه في الأعماق كان أعظم مما تصوّر:

آنية ذهبية منقوشة بدقة، ثم لاحقاً هياكل عظمية محلاة بالذهب والعقود الماسية، مؤكداً بذلك ما ورد في أوراق القس **دي لاند** حول

القرابين البشرية التي أُلقي بها في البحيرة، أحياءً أو أمواتاً، منذ ما قبل الغزو الإسباني عام 1510.

الكنوز المسروقة والمساومة السياسية

استخرج تومسون ورفاقه أكثر من ألف إناء ذهبي بنقوش بديعة ، نقلوها خفية إلى مدينة تولوم ومنها إلى سفينة أمريكية بالقرب من الميناء . وحين واجه وزير الداخلية المكسيكي، حاول الأخير ابتزازه واتهامه بسرقة الآثار. غير أن تومسون لجأ إلى حيلة عجيب ماكرة:

عرض عليه آنية ذهبية واحدة، ملوّحاً له بأن آلاف الآنية الذهبية الأخرى ستظل بعيدة عن متناول الحكومة المكسيكية ، ما لم يضمن لنفسه مهلة لتصوير النقوش وترجمتها في بوسطن، تحت إشراف أمريكي. وهكذا تحولت الكنوز من إرث مقدّس لشعب المايا إلى موضوع مساومة بين طامع أجنبي ومسؤول محلي فاسد يطمع في الثروة .

X

بعد وفاة تومسون بوقت قصير، تولت **اليونسكو** مع علماء الحضارات القديمة مهمة دراسة النقوش على تلك الآنية . وقد كشفت البحوث بقيادة الدكتورة **سيرام** من جامعة سياتل عن جانب مروّع في معتقدات المايا:

- الإنسان خُلق ـ وفق أساطيرهم ـ من لعاب الإله الأكبر **بونمباك** ومن عجين الذرة، ليكون خادماً للآلهة (نفس فكرة الالهة في الحضارات الأخرى) .
- غذاء الآلهة المفضل هو أجساد البشرو خصوصا الاناث، وشرابها دماؤهم .
- النقوش حملت مصطلحات مثل **"يا اتشاي "**التي تعني "الفم المفتوح" للتهام الضحايا، و **"جويو يا اتشاي "**التي تشير إلى تقديم القربان الحي .

X •

تبيّن النقوش أن الكهنة في المعابد ، كانوا يقيمون مراسيم بشعة على شاطئ البحيرة المقدسة :

- تقييد الضحية من يديه و رجليه، قطع لسانه، جمع الدم في آنية ذهبية، ثم شق الصدر وانتزاع القلب لإلقائه في الماء.
- النساء العذارى كنّ يزُيَّنّ بالذهب والألماس قبل دفعهن إلى أعماق البحيرة بحجة "لقاء الآلهة" واختيار الأزواج المقدسين. ومن نجت منهن كانت تُلقّن قصصاً خرافية ترويها للشعب بوصفها "رسائل الآلهة"، ضماناً لاستمرار الوهم الجماعي للكهنة .

البعد النفسي والاجتماعي والفلسفي

إن مأساة بحيرة القرابين لا تكمن فقط في مشاهد الدماء والضحايا، بل في **الآلية النفسية والاجتماعية** التي جعلت شعب المايا يقبل بهذه الممارسات:

- **الخوف المقدّس** :إذ كان يُلقَّن الشعب أن غضب الآلهة يعني الجفاف والموت، وأن دماء الأبرياء وحدها تروي عطش آلهة السماء.
- **التبرير الفلسفي** :اختزلت العقيدة المایاوية وجود الإنسان في كونه أداة لخدمة الإله، مما ألغى فرديته وحريته.
- **البعد الاجتماعي** :تحوّلت القرابين إلى أداة سيطرة بيد الكهنة، الذين استغلوا الطقوس لترسيخ سلطتهم، فكان الفقراء والأسرى أول الضحايا.

X

تكشف مأساة "بحيرة القرابين المقدسة" عن وجه مظلم للحضارات القديمة، حيث تلتقي الطقوس الدينية بالسلطة السياسية والاقتصادية لتنتج منظومة عنف مغلّفة بالقداسة. وما فعله تومسون عام 1935، رغم طابعه الاستعماري لبلده ، والنهّاب لصالحه ، أسهم في فضح تلك الممارسات الكهنية التي تُظهر كيف يمكن أن يتحول الطقس المقدّس إلى ذريعة للقتل الجماعي (الابادة الجماعية

) ، وكيف يضحي الإنسان ـ عبر التاريخ ـ ضحية لآلهته التي صنعها بنفسه ، وصانعي أساطيره.

أوجه الشبه
بين الحضارة المصرية القديمة
وحضارة المايا

تُعَدّ الحضارتان المصرية القديمة وحضارة المايا من أبرز الحضارات الإنسانية التي تركت بصمات واضحة في التاريخ الإنساني. ورغم البُعد الجغرافي الشاسع بين وادي النيل في إفريقيا وأراضي المايا في أمريكا الوسطى، ورغم الاختلاف في السياقات البيئية والتاريخية، فإن ثمة أوجه شبه لافتة في ملامح هاتين الحضارتين، سواء على مستوى الدين والعمارة والفكر الكوني أو على مستوى التنظيم الاجتماعي والسياسي. ويكشف هذا التشابه عن نزعة إنسانية مشتركة في البحث عن النظام والمعنى، ومحاولة الإنسان تفسير العالم المحيط به عبر الرموز والدين والأسطورة.

أولًا: العمارة المقدسة والهرمية

1. الأهرامات والمعابد

- **في مصر القديمة** :شيد المصريون الأهرامات، وعلى رأسها هرم خوفو بالجيزة، كمدافن ملكية مرتبطة بفكرة الخلود والحياة بعد الموت.
- **في حضارة المايا** :بُنيت الأهرامات المدرّجة مثل هرم كوكولكان في تشيتشن إيتزا، وكانت مخصّصة للطقوس الدينية وتقديم القرابين للآلهة.

2.القداسة المرتبطة بالفضاء

كلا الحضارتين ربطتا العمارة بالكون، إذ جرى تصميم الأهرامات والمعابد بما ينسجم مع الظواهر الفلكية، مثل مواقع الشمس والنجوم والاعتدالات الفلكية. ويعكس ذلك تصورًا كونيًا يجعل من العمارة جسرًا بين السماء والأرض.

ثانيًا: الدين والرمزية الأسطورية

1.تعدد الآلهة

- **في مصر** :اعتقد المصريون بآلهة متعددة مثل رع (إله الشمس)، وأوزوريس (إله البعث)، وإيزيس (إلهة الأمومة.(
- **في المايا** :عبد المايا آلهة متعددة، مثل إيتزامنا (إله الخلق)، وتشاك (إله المطر)، وكوكولكان (إله الرياح والأفاعي المجرّدة.(

2.الأسطورة والموت

كلا الحضارتين ربطتا الموت بالبعث والتجدد:

- المصريون اعتبروا الموت انتقالًا إلى "الحياة الثانية"، ما يفسّر عناية التحنيط والدفن.
- المايا اعتقدوا بوجود عوالم سفلية (Xibalba) وبحياة أخرى يُعاد فيها اختبار الروح.

ثالثًا: الفلك والتقويم

1.الحساب الدقيق للزمن

- **في مصر** :ابتكروا تقويمًا شمسيًا من 365 يومًا لتنظيم الزراعة ومواسم فيضان النيل.

- **في المايا** :امتلكوا تقويمًا مزدوجًا (Haab و Tzolk’in) شديد الدقة، وارتبط بالطقوس الدينية والزراعية.

2.ارتباط الزمن بالمقدس

في كلا النظامين، لم يكن الزمن مجرد حساب للأيام، بل هو دائرة كونية ذات أبعاد دينية، تُحدد مصائر البشر وتربط الماضي بالمستقبل.

رابعًا: الكتابة والرموز

1.الكتابة التصويرية

- **في مصر** :الكتابة الهيروغليفية التي جمعت بين الرموز الصوتية والصورية.
- **في المايا** :الكتابة الهيروغليفية المایاوية التي دمجت الرموز الصورية والمقاطع الصوتية.

2.الوظيفة الدينية والسياسية

الكتابة لدى الطرفين لم تكن مجرد وسيلة للتواصل، بل كانت أداة لتدوين الطقوس، وتخليد الملوك، وتوثيق الأساطير.

خامسًا: السلطة والملوك

1.قداسة الملك

- **في مصر** :الفرعون اعتُبر إلهًا حيًا أو ابن الآلهة، يجسد النظام الكوني (ماعت.(
- **في المايا** :الحكام كانوا وسطاء بين البشر والآلهة، وأُحيطوا بالرمزية المقدسة، وشاركوا في الطقوس الدموية لتأكيد شرعيتهم.

2.توظيف الدين للشرعية

كلا الحضارتين اعتمدتا على الدمج بين السلطة السياسية والقداسة الدينية، مما منح الحكم استقرارًا وشرعية.

سادسًا: الطقوس الدينية والتضحيات

- **المصريون القدماء** :مارسوا طقوس القرابين الغذائية والحيوانية للآلهة، لكنهم لم يشتهروا بالتضحيات البشرية إلا نادرًا.
- **المايا** :اشتهروا بالتضحيات البشرية كوسيلة لاسترضاء الآلهة، خصوصًا في أوقات الأزمات أو الاحتفالات الكبرى.

ورغم اختلاف الوسائل، يتشابه المبدأ: إرضاء القوى العليا عبر طقس مقدس يجمع الجماعة.

سابعًا: العلاقة مع الطبيعة والزراعة

1.الاعتماد على النهر والمطر

- المصريون ارتبطوا بنهر النيل، الذي وفر الزراعة والحياة.
- المايا اعتمدوا على الأمطار والغابات والأنهار الجوفية، وصمموا قنوات لري الحقول.

2.الزراعة كعماد الحضارة

كلا الحضارتين اعتمدتا على زراعة الحبوب الأساسية (القمح والشعير في مصر، والذرة في المايا)، ما جعل الزراعة قلب النظام الاقتصادي والاجتماعي.

ثامنًا: الفن والرمزية

- **في مصر** :الفن مثّل الألوهية والخلود، وتجلّى في النقوش والتماثيل ذات الطابع الرسمي.
- **في المايا** :الفن كان غنيًا بالرموز والأساطير، وزُينت الجدران بالنقوش التي تحكي الحروب والطقوس.

وفي الحضارتين، كان الفن وسيلة لتجسيد الميثولوجيا وترسيخ الهوية الجماعية.

تاسعًا: الرياضيات والهندسة

- المصريون امتلكوا معرفة هندسية دقيقة مكّنتهم من تشييد الأهرامات والمعابد.
- المايا طوروا نظامًا عدديًا قائمًا على العشرين (العشري-العشريني) واستخدموا مفهوم الصفر بمهارة عالية.

ورغم اختلاف النظامين، يشترك كلاهما في توظيف الرياضيات لخدمة الفلك والعمارة.

عاشرًا: الانعزال والتأثير

على الرغم من الانعزال الجغرافي بين الحضارتين، إلا أن التشابهات توحي بأن الإنسان، في أي مكان، يميل إلى بناء أنماط متشابهة من التنظيم والرمز عندما يواجه تحديات مشتركة: فهم الطبيعة، إضفاء الشرعية على الحكم، البحث عن الخلود.

إن أوجه الشبه بين الحضارة المصرية القديمة وحضارة المايا لا يمكن تفسيرها بالاتصال المباشر، نظرًا للتباعد الجغرافي والزمني، بل تعكس قواسم مشتركة في التجربة الإنسانية: الإيمان بالآلهة، السعي لفهم الكون، الاهتمام بالزمن والخلود، وتقديس السلطة. ويكشف هذا التوازي أن الحضارات الكبرى، رغم اختلاف البيئات، تتلاقى في إبداع رموزها وأفكارها وعمارتها، بما يعكس وحدة التجربة الإنسانية في بحثها عن المعنى.